بين البلاغة العربية القديمة ومدرسة كونستانس الألمانية

د . أحمد سمير العاقور*

1 /1 / بينما تذيع الإشارة إلى كتاب الجاحظ (ت : 255هـ) =البيان والتبيين+ بهذه الصورة الخطية، فإن متأمل غلاف مخطوطة كوبريلي سيلحظ بوضوح أن اسم الكتاب المكتوب عليها يجيء بهذه الصورة : =البيان والتبين+، بياء واحدة في كلمة =التبيُّن+ لا باثنتين، وهو الأمر نفسه الذي سيلحظه على مصورة الصفحة الأولى لمخطوطة مكتبة فيض الله (1). لقد حاول محقق الكتاب عبد السلام هارون (ت : 1988م) أن يتدارك الأمر فيما بعد طبعته الرابعة، فأرشد إلى هذا الملحظ وسجله، ووعد بتغيير هذه الصورة في الطبعات اللاحقة، معللا ذلك من الناحية الفنية بأن البيان هو التبيين نفسه، ومن ثم يصعب تخيل أن يغر هذا التركيب واحدا في مقام الجاحظ، ومضيفا أن الكتاب ذو شقين متداخلين :

=الشق الأول هو ما اختاره الجاحظ من النصوص والأخبار والأحاديث والخطب والوصايا، وكلام العرب والزهاد ونحو ذلك، وهو ما يعنيه الجاحظ بكلمة البيان . والشق الثاني هو النقد الأدبي في صورته المبكرة، فللجاحظ في هذا الكتاب نظرات فاحصة في نقد نصوصه وفي الكلام بصفة عامة، تسمى بعد ذلك بفن النقد، فهذه النظرات وهذه القواعد التي ساقها الجاحظ هو ما عناه بكلمة التبين+ (2).

ينهض هذا النص نموذجا لنظرة قارئ تقليدي، يتحكم سياقه

---

* قسم البلاغة والنقد الأدبي والأدب المقارن، كلية دار العلوم ـ جامعة الفيوم

(1) انظر : عبد السلام هارون : مقدمة التحقيق [منشور بين يدي كتاب : البيان والتبيين للجاحظ]، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط7، 1998م، ص21، 26 .

(2) انظر : عبد السلام هارون : قطوف أدبية دراسات نقدية في التراث العربي حول تحقيق التراث، مكتبة السنة، 1988م، ص97، 98 . ومع هذا فالكتاب لا يزال يطبع إلى وقتنا الراهن حاملا الصورة المتداولة، دون إشارة إلى مبررات هذا الصنيع، وربما تكون وفاته هي السبب في عدم إنجازه وعده .

المنارة للاستشارات

التاريخي الخاص بعملية توجيه النصوص ومضامينها، وإن تكن ثَم محاولة محدودة للانعتاق من المألوف والمبذول، فإنها تلك التي لم تسعفها معرفة منفتحة على المستجدات في ميدان النقد الأدبي . حديثنا هنا لا يعدو أن يكون توصيفا، لا انتقادا ولا ترويجا لهذه المستجدات، التي ربما نرى فيها قصورا عن إدراك حقيقة العمل الفني . ومهما يكن فقد يعنينا من هذا النص أيضا، بطبيعة المقام، كونه يصلح منبها في رصد الظاهرة، والإلماح إلى التداخل الدلالي الكائن بين لفظتي البيان والتبيين؛ ليتسنى لنا الولوج إلى عالم الكتاب نفسه، من زاوية منطقه الذاتي الماثل في نصوصه، لا من زاوية منطق تفرضه النظرة الموروثة المؤطرة لمدونات البلاغة القديمة، لنخلص إلى زعم مؤداه أن نظرية الجاحظ البيانية التي يدشنها كتابه تزاوج في توجهاتها بين مؤلف النص ومتلقيه، بحيث تتصل النصوص المتوفرة على البيان للأول منهما، في حين تتصل النصوص المتوفرة على التبين للآخر، ذلك الذي من المحتمل، تحت ظروف معينة، أن يكون الناقد نفسه .

1 / 2/ في هذا الإطار، الذي تحدونا فيه رغبة الاتصال بالبنى الأولية لنظرية الجاحظ، والتدليل على هذا الذي زعمنا، سيلقانا النص المركزي الذي يقول فيه :

=مدار الأمر على البيان والتبيُّن، وعلى الإفهام والتفهُّم، وكلما كان اللسان أبين كان أحمد، كما أنه كلما كان القلب أشدَّ استبانة كان أحمد، والمُفهم لك والمُتفهِّم عنك شريكان في الفضل+ (1) .

إن نعت هذا النص بالمركزي يستمد مسوغاته من احتلاله موقع المهاد في خطبة الكتاب، ومن تماسه الواضح مع العنوان في صورته غير الرائجة، التي أشرنا إليها، ومن أنه يحوي عبارات متراصة في تتابع؛ يكاد يكون حضور كل واحدة منها مقترنا بوظيفة تفسيرية لعبارات أخرى سالفة، ومن ثم فإنه يمنحنا سبيلا، ولو على نحو افتراضي، لتشعيب المادة المعرفية التي ينثرها الكتاب في فصوله المقبلة، بحيث يئول الأمر إلى إظهارنا على طرفي العلاقة الإبداعية : الأديب والمتلقي، تماما كما تجلى ذلك في النص الحالي، الذي يجيء

(1) انظر : الجاحظ (أبو عثمان عمرو بن بحر) : البيان و[التبين]، تحقيق : عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط7، 1998م، ص11 .

المنارة للاستشارات
ww

محملا بمفردات من الممكن توزيعها بالسوية عليهما، فللأديب مفردات : البيان والإفهام واللسان والمفهم لك، وللمتلقي مفردات : التبين والتفهم والقلب والمتفهم عنك . يعضد من هذا التوجيه ما سيلقانا من نصوص أخرى تغرف من المعين ذاته، وتكشف عن تصور مهيمن قوامه العلاقة الجدلية الكائنة بينهما، يستوي في ذلك هذه النصوص التي يصوغها هو وتلك التي يقتبسها عن غيره، فمن الأولى قوله في تعريف =البيان+ :

=اسم جامع لكل شيء كشف لك قناع المعنى، وهتك الحجاب دون الضمير، حتى يفضي السامع إلى حقيقته، ويهجم على محصوله كائنا ما كان ذلك البيان، ومن أي جنس كان الدليل، لأن مدار الأمر والغاية التي إليها يجري القائل والسامع إنما هو الفهم والإفهام+ (1) .

ومن الأخرى نقله عن إبراهيم بن محمد قوله :

=يكفي من حظ البلاغة ألا يؤتى السامع من سوء إفهام الناطق، ولا يؤتى الناطق من سوء فهم السامع+ (2) .

وهي نصوص تؤكد أن البلاغة التي يؤسس الجاحظ في مشروعه ليست بلاغة المؤلف المتسلط بتملكه النص، كما أنها أيضا ليست مجرد بلاغة النص الهائم، إنها إلى جوار هذه وتلك بلاغة المتلقي، التي تعنى بتفحص إمكاناته، وبتحديد طبقته، ودرجة تأثره، وطبيعة نشاطه القرائي إزاء النصوص .

2 /هذا التوجه الذي تكشف عنه نصوص الجاحظ لا ينشب بها وحدها، وإنما يستولي على أغلب المدونات البلاغية العربية في العصور اللاحقة له، تلك التي أولت بدورها عناية فائقة للمتلقي (أو لنقل بحسب المصطلح الأدق : المخاطب)، ويكفي أن ندلل على ذلك بالإشارة إلى أن المباحث التي تشكل كيان البلاغة العربية قد صبت اهتماماتها، بصفة عامة، على المعنى، وأقصد أنها كانت ترقب دائما ما يطرأ على الدلالة من تغيير، وما يستجد في نفس المتلقي من استجابة إزاءها، تبعا لما يلجأ إليه البليغ من أساليب أثناء تصريفه فنون القول، ولعل ذلك ما دفع أبا هلال العسكري (ت : 395هـ) ليقول في تعريف البلاغة : =كل ما تبلغ به قلب السامع فتمكنه في نفسه كتمكنه في نفسك، مع صورة مقبولة

(1) انظر : الجاحظ : البيان و[التبين]، ص76 .
(2) انظر : الجاحظ : البيان و[التبين]، ص87 .

المنارة للاستشارات

ومعرض حسن + (1). وتحتل نصوص عبد القاهر الجرجاني (ت : 471هـ)، التي ضمنها كتابه =دلائل الإعجاز+ شأوا عاليا في تمثيل هذا التوجه المشتغل بالمعنى، خاصة تلك التي تعالج الفروقات الدقيقة الكائنة بين الدلالات المتولدة عن عبارات تتقارب في صياغتها؛ إذ تشير، مثلا، إلى الفرق بين صيغتي : =زيد المنطلق =و =المنطلق زيد+ (2)، وتستفيض في بيان الفروق بين صيغتي =أنت فعلت ..+و=أفعلت ..+(3)، وتجلي مغايرة حال السامع لجملة : =هذا الذي قدم رسولا =عن حال سامع جملة : =هذا قدم رسولا+ (4)، وبالمثل تنهض نصوصه الأخرى التي ضمنها كتابه =أسرار البلاغة+ لتعميق هذا التوجه، لاسيما حين نلمح إلحاحه الشديد على نفي أن تكون بلاغة الجناس أو السجع، وهما من المحسنات البديعية، عائدة إلى مجرد التشاكل الصوتي، ومحاولته إثبات أن مرد استحسانهما إلى المعنى الناشئ في ذهن السامع (5)، ومعروف أن هذا الكتاب يناقش قضايا سيتم إدراج معظمها تحت ما يعرف بعلم البيان، وهو ما يستدعي الانتباه إلى الروابط القارة في ذهنه بين علوم البلاغة الثلاثة : المعاني والبيان والبديع؛ وإذا استحضرنا هنا نظريته في =النظم+ فسوف تزداد معدلات وضوح هذا القول، ذلك أنها ترتكز على اليقين في أن اللفظة المجردة لا تفيد حتى تندرج في تأليف، ولا تستحق وصفا بحسن أو بقبح حتى تتعالق نحويا بغيرها في سياق، وحتى تتعاطى معها القوى المدركة لمتلق يلح عبد القاهر في مواطن شتى على ضرورة أن يكون بصيرا بجواهر الكلام (6)، وهو التصور الذي أسلمه إلى الفصل الذكي بين المعنى والغرض، وإغلاق باب الحديث عن السرقات الشعرية من حيث هي إعادة لإنتاج المعنى، يقول :

(1) انظر : العسكري (أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل) : [كتاب] الصناعتين، تحقيق : محمد البجاوي، المكتبة العصرية، بيروت، 1986م، ص54 .
(2) انظر : الجرجاني (عبد القاهر بن عبد الرحمن) : دلائل الإعجاز، تحقيق : محمود محمد شاكر، مكتبة الخانجي، القاهرة، 2000م، ص186 .
(3) للمزيد انظر : الجرجاني : دلائل الإعجاز، ص106 - 123 .
(4) للمزيد انظر : الجرجاني : دلائل الإعجاز، ص199 - 201 .
(5) انظر : الجرجاني (عبد القاهر بن عبد الرحمن) : أسرار البلاغة، تحقيق : محمود محمد شاكر، دار المدني، القاهرة، 1991م، ص7 - 21 .
(6) انظر : الجرجاني : أسرار البلاغة، ص5، 6 .

المنارة للاستشارات

=لا سبيل إلى أن تجيء إلى معنى بيت من الشعر، أو فصل من النثر، فتؤديه بعينه، وعلى خاصيته و[صنعته] بعبارة أخرى؛ حتى يكون المفهوم من هذه هو المفهوم من تلك، لا يخالفه في صفة ولا وجه ولا أمر من الأمور . ولا يغرنك قول الناس : قد أتى بالمعنى بعينه، وأخذ معنى كلامه فأداه على وجهه، فإنه تسامح منهم، والمراد أنه أدى الغرض+ (1) .

3 /1/ على أن هذا الاهتمام بالمعنى، أو حث المؤلف على استحضار المتلقي أثناء صياغة العمل الأدبي، أو التأكيد على أهمية موقفه في نجاح هذا العمل وإخفاقه؛ وهو ما يمكن حشد عشرات النصوص الدالة عليه من كتب البلاغة العربية القديمة ـ ليس ينهض مؤشرا على توجيه البوصلة للمتلقي أثناء رصد آفاق العملية الإبداعية، لأن هذا الصنيع لا يعدو أن يكون تكريسا لوضعية المتلقي المتلبس بدور المنفعل، وإنما فوق ذلك ينبغي منحه مساحة من الحرية لاستخراج دلالات النص المتاحة، وعدم تكبيله بقيود المعنى الأصلي الذي رامه صاحبه، وهو ما لا نعدم في تراثنا البلاغي ما يرشد إليه، على نحو من الأنحاء، إذ نظفر بنصوص تشي عن الوعي بتكاثر قراءات النص الجيد، تلك التي يمكن إنجازها بوساطة قراء عارفين . ربما يفيد هنا، بصورة مبدئية، استحضار حديث عبد القاهر الجرجاني عما أسماه =معنى المعنى+، أو =المعاني الثواني+، أثناء إشارته إلى نوع من الجهد العقلي المبذول من قبل المتلقي، للاتصال بما وراء ظاهر اللفظ من معان مكسوة، لا تبرز معالمها إلا عن طريق تأمل المعاني الأولية المباشرة (2) ؛ لأنه في هذا يميز بوضوح بين مستويين من مستويات القراءة، وقد يفيد أيضا استحضار تعليقاته الموزعة على الأبيات الشهيرة البادئة بقول الشاعر : =ولما قضينا من منى كل حاجة. ..+(3)، وهي الأبيات التي كان قد سبق وقف أمامها ابن قتيبة (ت : 276هـ) وابن طباطبا (ت : 322هـ) وقدامة بن جعفر (ت : 326هـ)، في سياقات تتبدى فيها أمارات الاستهجان بدرجات متفاوتة، لأن ذلك يمنحنا، ولو بصورة

(1) انظر : الجرجاني : دلائل الإعجاز، ص261 (بتصرف) .
(2) للمزيد انظر : الجرجاني : دلائل الإعجاز، ص262 - 266 .
(3) انظر : الجرجاني : دلائل الإعجاز، ص74 - 76، 294، 296، وأسرار البلاغة، ص21 - 24 .

المنارة للاستشارات
www

ضمنية، دعوة إلى الانفتاح على فضاءات النص المتعددة، ويشف عن قناعة في أن القراءة، وإن تكن جيدة، لا تجهز على النص ومقدراته بقدر ما تمهد لقراءات أخرى لاحقة . غير أن ذلك الذي يمكن أن نستنبطه، للحق، يضعفه إصرار عبد القاهر المتواتر على ما يمكن أن نسميه =القارئ المتعقل+، هذا الذي لا تأسره اللفظة بزخرفها، ولا تلهيه أذنه عن فؤاده وعقله، في سبيل الإمساك بأسرار النظم التي يخبرها تماما كواضعه، ولذا يتحاشى هذا القارئ النظرات المتعجلة، ويعاود الطرق مرات حتى ينكشف له الخبء، وهي فكرة تضمر في أحشائها اليقين في بقاء قراءة واحدة نقية، يمتلك مفاتيحها قارئ عارف خبير، يقول الجرجاني :

=واعلم أنه لا يصادف القول في هذا الباب موقعًا من السامع، ولا يجد لديه قبولا حتى يكون من أهل الذوق والمعرفة، وحتى يكون ممن تحدثه نفسه بأن لما يومئ إليه من الحسن واللطف أصلا، وحتى يختلف الحال عليه عند تأمل الكلام، فيجد الأريحية تارة، ويعرى منها أخرى، وحتى إذا عجَّبته عجب، وإذا نبهته لموضع المزية انتبه+ (1) .

ويقول في موطن آخر عن ضرب من التمثيل :

=فإنك تعلم على كل حال أن هذا الضرب من المعاني كالجوهر في الصدف لا يبرز لك إلا أن تشقه عنه، وكالعزيز المحتجب لا يريك وجهه حتى تستأذن عليه، ثم ما كل فكر يهتدي إلى وجه الكشف عما اشتمل عليه، ولا كل خاطر يؤذن له في الوصول إليه . فما كل أحد يفلح في شق الصدفة، ويكون في ذلك من أهل المعرفة، كما ليس كل من دنا من أبواب الملوك فتحت له+ (2) .

3 /2/ وعليه، فإن الأمر سيبيت أكثر اتصالا بمسألتنا حين ننتقل إلى كتاب العمدة لابن رشيق القيرواني (456هـ)، إذ يعقد فيه بابا تحت عنوان =الاتساع+، نلقى فيه بعض الإشارات إلى دور المتلقي في توجيه المعنى، وتباين رؤى المتلقين للنص الواحد، الذي يولد منفتحا على تأويلاته، ويبدأ الباب بقوله : =وذلك أن يقول الشاعر بيتا يتسع فيه التأويل، فيأتي كل واحد بمعنى. ..+، ويتبع ذلك بأبيات تمثل هذه الحالة،

(1) انظر : الجرجاني : دلائل الإعجاز، ص291 .
(2) انظر : الجرجاني : أسرار البلاغة، ص141 .

المنارة للاستشارات

كان منها بيت امرئ القيس الذي يقول فيه :

مِكـرً مِفـرً مُقبـلٍ مُـدبرٍ مَعـا

كَجُلمُودِ صَخرٍ حَطه السّيلَ مِنَ عَلِ

ويمضي ابن رشيق في إيراد القراءات المحتملة لهذا البيت، فيعرض المعاني المباشرة المتضمنة، التي تدور عند بعض القراء حول شدة سرعة فرسه وصلاحه لأمور شتى، ويعرض لقراءة عبد الكريم النهشلي (ت : 405هـ) التي ترى أن معنى البيت يدور حول الصلابة لا السرعة، كما يعرض أخيرا لقراءة من أسماهم =المحدثين+، التي يسوقها على هذا النحو :

=وقال بعض من فسره من المحدثين : إنما أراد الإفراط، فزعم أنه يرى مقبلا مدبرا في حال واحدة عند الكر والفر لشدة سرعته، واعترض على نفسه، فاحتج بما يوجد عيانا، فمثله بالجلمود المنحدر من قنة الجبل، فإنك ترى ظهره في النصبة على الحال الذي ترى فيها بطنه، وهو مقبل إليك . ولعل هذا ما مر قط ببال امرئ القيس، ولا خطر في وهمه، ولا وقع في خلده ولا روعه+ (1) .

وواضح أن هذه القراءة الأخيرة، التي ينسبها ابن رشيق إلى بعض المحدثين، ترقب البيت بمنظور تأويلي، وتحاول أن تتخطى القراءات السابقة لها، الرابضة حيث المعنى الذي يمنحنا إياه ظاهر اللفظ، ومن ثم لم تتعامل مع مفرداته بوصفها كيانات متخاصمة، بل على أنها كل متحد متماه، لتغدو وظيفة =معا+ لا مجرد العمل على ضم الصفات إلى بعضها، أو حتى تجلية استيعاب الذات الواحدة لها، وإنما كذلك توحيد لحظة الحدث، ورسم صورة بصرية له، تفتقر في فك شفراتها الحقيقية والمجازية إلى ذهن متلق خبير بما بين المدركات المتباينة من شراكة . وبتأملنا تقديم ابن رشيق لهذه القراءة وتعقيبه عليها، بعيدا الآن عن مساءلة رأيه أو موقفه، فسوف نرى إدراكه المسافة الكائنة بين النص الذي أنجزه المتلقي والنص الذي يقوله الشاعر، وانتباهه النسبي إلى أن تعدد القارئين يبشر بتعدد القراءات، وإلى أن هذه التعددية ترتهن بظرف التلقي وخصوصيته .

(1) انظر : ابن رشيق القيرواني (أبو علي الحسن) : العمدة في صناعة الشعر ونقده، تحقيق : النبوي شعلان، مكتبة الخانجي، القاهرة، 2000م، 2/ 734، 735 .

المنارة للاستشارات

3/ 3 /لكن من المهم هنا تسجيل أن ابن رشيق نفسه لا يمضي إلى نهاية الطريق، إذ تعوقه تقاليد البلاغة العربية القديمة، التي تقدس المعنى الكامن في النص، ولذا لم ينس أن يردف تعريفه مصطلح =الاتساع+ بالمعايير الضابطة، حتى لا تنحرف القراءة عن المحور الذي تطوف حوله : مقصد المؤلف، ويمكن الآن أن نفرج عن تعريفه هذا المصطلح بصورة تامة، لنستكمل تصوره عن المتلقي، وطبيعة الدور المنوط به وحدوده، يقول ابن رشيق :

=وذلك أن يقول الشاعر بيتا يتسع فيه التأويل، فيأتي كل واحد بمعنى، وإنما يقع ذلك لاحتمال اللفظ، وقوته، واتساع المعنى+ (1).

الاتساع إذن، كما يتصوره ابن رشيق، ليس سوى حدث استثنائي، يستلزم القول بوجوده، ومن ثم التعاطي معه، البحثُ عن مسوغ، وبكلمات أخرى؛ إن القارئ المؤول الذي يستدعيه ابن رشيق هو قارئ موجه من قبل النص نفسه، ذلك الذي تحتمل ألفاظه القوية توجيهات متنوعة، لنكتشف أن المتلقي لا يزال رغم هذه المساحة التي يتحرك فيها مدينا لسلطة المؤلف، وتتكشف لنا هذه الصورة بتمامها حين نشير إلى نموذج آخر من نماذج الاتساع التي ساقها، هي قول الفرزدق :

اخـذنا بافـاقِ السّـماءِ علـيكمُ
لنـــا قمَراهـــا والنجـــومُ الطوالِـــعُ

إذ يقص علينا ابن رشيق كيف كان هذا البيت مثار قراءتين في مجلس الخليفة العباسي الرشيد؛ الأولى : قراءة الأمين والمأمون اللذين تعاملا مع ألفاظه بصورة مباشرة، والأخرى : قراءة المفضل الضبي (توفي : نحو168هـ) الذي صرف البيت إلى مدح الرشيد وآبائه الطيبين، ويعقب ابن رشيق على ذلك بما يكشف عن عقيدته في واحدية المعنى الذي يقصده المؤلف، والذي ينبغي أن ينشده القارئ بدوره؛ إذ ينظر إلى قراءة المفضل على أنها إساءة تأويل، وشحن للنص بمضامين لا تنتسب إليه بالأصالة، ويتدخل هو أخيرا ليحدد معاني البيت ويحصرها في عبارات منثورة، ما يعني أن تكاثر القراءات التي يفسح لها الاتساع ليست سوى عملية وقتية، ريثما تترشح قراءة واحدة، هي التي يمكن أن نقدم لها بقولنا : =الشاعر أراد. ..+، يقول ابن رشيق :

(1) انظر : ابن رشيق القيرواني : العمدة في صناعة الشعر ونقده، 2/ 734 .

المنارة للاستشارات

=والفرزدق ما قصد إلى شيء من ذلك ولا أراده ولا علم أن الرشيد يكون بعده أمير المؤمنين، وإنما أراد أن كل مشهور فاضل فهو لنا عليكم ومنا لا منكم، فنحن أشرف بيتا وأظهر فضلا وأبعد صوتا إلا أن التي جاء بها المفضل ملحة أفادت مالا+ (1) !

4/إذا تقدمنا زمنيا إلى حدود منتصف القرن الثامن الهجري تقريبا، فسوف نلحظ أن مفهوم مصطلح =الاتساع+ سيكون قد تقدم هو الآخر، ليقترب خطوة من الفهم الحديث لعملية التأويل، ولينضاف إلى رصيد المساحة التي يتحرك فيها قارئ النص بعد جديد، ذلك أن السجلماسي (توفي حوالي : 730هـ) سيتراءى متخففا أثناء تعريف الاتساع من بعض أعباء المعايير الضابطة، التي رأيناها عند ابن رشيق، بل ربما أمكن أن نراه على حافة أخرى منها، حين يرى أن عدم استقرار وهم السامع هو الشرط الأساس والأمارة المائزة لتحقق الاتساع، يقول :

=والاتساع هو اسم مثال أول منقول إلى هذه الصناعة، ومقول بجهة تخصيص عموم الاسم على إمكان الاحتمالات الكثيرة في اللفظ بحيث يذهب وهم كل سامع إلى احتمال احتمال من تلك الاحتمالات، ومعنى معنى من تلك المعاني . وقول جوهره في صنعة البديع والبيان هو صلاحية اللفظ الواحد بالعدد للاحتمالات المتعددة من غير ترجيح . وقيل : هو أن يقول المتكلم قولا يتسع فيه التأويل، وقيل هو توجه اللفظ الواحد إلى معنيين اثنين ..+(2) .

إن قيمة هذا النص تعود لا فحسب إلى انشراحه بالقراءات الممكنة كلها، دون مصادرة على واحدة منها، وإنما أيضا إلى أنه، بالتضام لنصوص أخرى تختصبنظرية السجلماسي حول =التخييل+، يشرك القارئ في عملية إنتاج المعنى، بما أنه حصيلة انفعالاته المتولدة عن مفاجآت النص، ومجاوزته الاعتيادي والمبذول، يقول :

= . . ولا خفاء بارتباط الانفعال هنا والارتياح بما يقرع السمع ويفجأ البديهة فقط دون ما عداه . والانفعال التخييلي بالجملة هو غير

(1) انظر : ابن رشيق القيرواني : العمدة في صناعة الشعر ونقده، 2/ 736 .

(2) انظر : السجلماسي (أبو محمد القاسم الأنصاري) : المنزع البديع في تجنيس أساليب البديع، تحقيق : علال الغازي، مكتبة المعارف، الرباط، 1980م، ص429 .

المنارة للاستشارات
ww

فكري فكيف يعود الأمر غير الفكري فكرياً وينقلب الأمر البديهي اختيارياًّ؟!+ (1) .

غير أنه ينبغي الحد من غلواء الأوصاف التي يمكن أن نخلعها على مشروع السجلماسي، في لحظة من لحظات تحمسنا لموروثنا؛ فلا يعزب عنا أنه لم يزل يستهدف بلاغة المؤلف، وأنه يتحدث عن صنف بعينه من النصوص، وأنه بصورة عامة لم ينفك عن تصور المتلقي بوصفه =المنفعل+ أو =المتأثر+ (2) .

5 /عززت فلسفات التأويل الحديثة من دور القارئ في تعاطي الظواهر والمدركات، وكان هذا إيذانا بالتفات مناهج النقد الأدبي ونظرياته عن المؤلف الذي استأثر بحملقتها ردحا طويلا من الزمن، وكذلك عن العمل الفني نفسه الذي لم يعد في منظورها بنية منغلقة . وبدلا من ذلك راحت هذه النظريات النقدية الموجهة للقارئ، على اختلافها، تتفق على معارضة الاعتقاد القائل بأن المعنى متضمَّن، بصورة تامة وعلى سبيل الحصر، في العمل الأدبي (3)، وبرغم المحاولات المتعددة التي قام النقاد بها في سبيل حصر هذه النظريات فإن ذلك ظل مطلبا عزيزا، ونشير هنا إلى حديث إلرود إبش الذي يرى أن ما يدرج اليوم تحت اسم التلقي بعيد تماما عن أن يطابق أساسا معرفيا واحدا، وحديث روبرت هولب عن الجدل المحتدم بخصوص ما تستهدفه الدراسات المعنية بالتلقي تحديدا، وإن كان قد حاول إبش التمييز بين أربعة مشروعات في إطار نظرية التلقي : الأول ظاهراتي عند فولفجانج إيزر (Wolfgang Iser)، والثاني تأويلي عند هانس روبرت ياوس (Hans Robert Jauss)، والثالث تكويني اجتماعي عند موكاروفسكي (Mukařovský) والرابع تجريبي متخذا نزعة نفسية عند جروين ومتخذا نزعة اجتماعية عند شميدت (Schmidt) (4)، كما سنجد أيضا محاولة هولب التمييز بين نظرية استجابة القارئ Reader

(1) انظر : السجلماسي : المنزع البديع في تجنيس أساليب البديع، ص500، 501 .

(2) ينظر : السجلماسي : المنزع البديع في تجنيس أساليب البديع، ص162 .

(3) انظر : تومبكنز (جين) : القارئ في التاريخ؛ تغير شكل الاستجابة الأدبية (ضمن كتاب : نقد استجابة القارئ، من الشكلانية إلى ما بعد البنيوية، تحرير : جين تومبكنز)، ترجمة : حسن ناظم وعلي حاكم، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، 1999م، ص 337 .

(4) انظر : إبش (إلرود) : التلقي الأدبي، ترجمة : محمد برادة، مجلة دراسات سال، فاس، العدد : 6، 1992م، ص11 - 13 .

المنارة للاستشارات

(Recepons) التي ظهرت في كتابات بعض النقاد الأمريكيين، ونظرية التلقي أو الاستقبال (Rezeptionstheorie[1]) التي تمثلها مدرسة كونستانس الألمانية، من جهة الصورة الجماعية التي تميزت بها الثانية دون الأولى، على مستويات إنتاج الخطاب والتماسك المنهجي والاستجابة لظروف اجتماعية وعقلية وأدبية في ألمانيا الستينيات [2].

من موقعية الاستقبال تتخذ الذات العربية قبالة هذه النظريات الوافدة إحدى المواقف المرتقبة الآتية : التحمس للتراث والانكفاء عليه، أو الاندفاع نحو قراءته قراءة استنطاقية، أو الافتتان بالوافد وطمر إنجازات الأسلاف، أو التوفيق الرامي إلى انتخاب أكثر الإجراءات ملاءمة لطبيعة النصوص الإبداعية، إلى غير ذلك من مواقف ممكنة، تعمل على تجذير جدارة السؤال : إلى أي مدى تتماس هذه الصيحة أو تلك مع المنجز النقدي/ البلاغي العربي القديم أو تتباعد عنه؟ وبإيعاز من نزعة التحمس للموروث، أو الانبهار بالمستجدات في ميدان قراءة النصوص الإبداعية، تجنح الذات العربية غالبا ناحية إثبات هذا التماس، عن طريق إعادة قراءة بعض النصوص التي وقعت في كتب الأسلاف، قراءة تبدو بها منتزعة عن سياقاتها الأوسع وأنساقها المعرفية المنتجة، بما أنها تستمد أضواءها الكاشفة من تلك المعارف الجديدة، التي كثيرا ما تخضع هي الأخرى لعمليات اختزال تكنزها في مقولات سيارة، دون استكناه مناخها الذي هبطت فيه إلى دنيا الفكر . سنجد هذا النمط القرائي بدرجة ما في بعض نصوص من دراسة مصطفى ناصف : نظرية التأويل، يقول ناصف : =حارب المتصوفون الانفصال الشديد بين النص والقارئ على نحو ما فعل أهل الفنومونولوجيا، حارب المتصوفون فكرة المنهج الذي يقف بين النص والقارئ والذي يحول دون تذوق النص بكل قوته وثرائه، وكلمة التذوق عند الصوفية هي كلمة التجربة عند الفنومونولوجيين+ [3]. وهي قراءة تختزل مفهوم مصطلح التجربة (Erfahrung)، وتستأصله عن جذوره المعرفية المنتسبة إلى الفلسفة الظاهراتية (Phänomenologie) التي شيدها الفيلسوف الألماني

(1) أتبنى ترجمتها إلى نظرية الاستيعاب؛ لأسباب موضوعية كشفت عنها في غير موطن .
(2) انظر : هولب (روبرت) : نظرية التلقي، ترجمة : عز الدين إسماعيل، النادي الأدبي الثقافي، جدة، 1994م، ص7، 32، 33 .
(3) انظر : مصطفى ناصف : نظرية التأويل، النادي الأدبي الثقافي، جدة، 2000م، ص179 .

المنارة للاستشارات

إدموند هوسرل (Edmund Husserl)، وتستنطق التراث العربي القديم ليفصح عن مضامين لا تمت إليه بالأصالة .

6/ على أن الأمر في دراسة ناصف لا يعدو أن يكون نتوءات، بينما نجده شاخصا بوصفه السمة البارزة في دراسات أخرى، سنتوفر الآن على مناقشة واحدة منها، هي دراسة سميرة سلامي : =إرهاصات نظرية التلقي في أدب الجاحظ+، بغرض الكشف عن استراتيجيتها في قراءة الموروث، وتجلية بعض جوانب النظرية الغربية، بما يحقق لمداخلتنا الراهنة قوامها المقارن، ويسهم في تجنيب الدراسات المقبلة معوقات الاستقبال الواعي والمثاقفة الفاعلة، بما يعني في الأخير أن الدراسة لن تمثل سوى منطلق للرصد . تبدأ هذه الدراسة بالتنبيه على أهمية تراث الجاحظ واحتوائه كثيرا من الرؤى والأفكار، التي تبلورت فيما بعد لتكون نظريات علمية وأدبية في عصورنا الحديثة، وكأنها تمهد لرحلة بحثها عما يمكن أن يقرب الجاحظ من رواد نظرية التلقي، كما تشرع لها في آن، وتمضي الدراسة مستمسكة بما يبدو أنه حذر من الإفراط في استخدام الألفاظ المتحمسة للتراث، فتكتفي بتوظيف ألفاظ مثل : =تشابه+و =تلاق+، بالإضافة إلى لفظة =إرهاص+ التي تسكن العنوان وتتكرر في غير موضع منها، غير أنها تتخلى شيئا فشيئا عن هذا الحذر، أثناء مواجهتها بعض نصوص الجاحظ، التي تستخلص منه أنه يسبق رواد نظرية التلقي في بعض أفكارهم، تقول الدراسة :

=نص الجاحظ السابق غني بدلالته على فضل القراءة والقراء، فالحديث الشفهي عرضي، لا يتجاوز تأثيره مجلس صاحبه وهو منغلق محدود برؤية صاحبه الذي يجادل سمعه ليثبت معنى محددا لكلامه . أما النص المكتوب فهو شمولي، منفتح على العالم الواسع، وتأثيره باق على مر العصور فالجمهور المتلقي الذي يقرأ هذا النص لا حدود له في زمان أو مكان، ويستطيع المتلقي أن يقرأ هذا النص بعيدا عن نية صاحبه، الذي لم يعد موجودا ولم يعد بوسعه أن يجادل وينازع. . فكل قارئ يتناول النص من خلال ثقافته وتجربته الخاصة، ومن خلال هموم مجتمعه وقيم عصره (أفق توقعاته) وهذا يعني أن النص الأدبي المكتوب يكون له من التفسيرات والتأويلات بعدد قرائه+ (1) .

(1) انظر : سميرة سلامي : إرهاصات نظرية التلقي في أدب الجاحظ، مجلة التراث العربي،

المنارة للاستشارات

إن أقل ما يمكن به وصف هذا القول الذي سجلته هذه الدراسة، هو أنه قول يحمل حماسا مفرطا للجاحظ وما كتب، حتى ليزعم أننا في نص واحد من نصوص كتابه نلفى أفكارا لم يتم ترديدها على نطاق واسع وجدي إلا في إطار نظريات ما بعد البنيوية، من مثل : فكرة =النص المفتوح+، و=تعدد القراءات+ أو =تناسلها+، و=أفق توقعات جماعة القراء+ . .، وهو زعم تتبين مفارقته الصواب بالوقوف أمام نص الجاحظ نفسه، الذي يقول فيه :

=والكتاب قد يفضل صاحبه ويتقدم مؤلفه ويرجح قلمه على لسانه بأمور منها أن الكتاب يقرأ بكل مكان ويظهر ما فيه على كل لسان ويوجد مع كل زمان على تفاوت ما بين الأعصار وتباعد ما بين الأمصار وذلك أمر يستحيل في واضع الكتاب والمنازع في المسألة والجواب ومناقلة اللسان وهدايته لا تجوزان مجلس صاحبه ومبلغ صوته وقد يذهب الحكيم وتبقى كتبه، ويذهب العقل ويبقى أثره، ولولا ما أودعت لنا الأوائل في كتبها، وخلدت من عجيب حكمتها ودونت من أنواع سيرها حتى شاهدنا بها ما غاب عنا وفتحنا بها كل مستغلق كان علينا فجمعنا إلى قليلنا كثيرهم وأدركنا ما لم نكن ندركه إلا بهم، لقد خس حظنا من الحكمة ولضعف سببنا إلى المعرفة ولو لجأنا إلى قدر قوتنا ومبلغ خواطرنا ومنتهى تجاربنا لما تدركه حواسنا، وتشاهده نفوسنا، لقلت المعرفة وسقطت الهمة وارتفعت العزيمة وعاد الرأي عقيما والخاطر فاسدا ولكل الحد وتبلد العقل ..+(1) .

لقد اضطررنا إلى نقل نص الجاحظ؛ على طوله؛ لندلل على أنه يجيء خلوا مما زعمت الدراسة، وأن كل ما هنالك أنه يقايس بين الحديث الشفهي والحديث المكتوب، في معرض الحث على اصطناع الكتب والاحتجاج على من زرى على واضعها، كما يصرح بذلك النص السابق على هذا المقتبس (2)، ولئن تغاضينا عن ذلك، وتغاضينا أيضا عن قيمة =قد+ المذكورة بين يدي حديثه، التي ربما يبيت بها أبعد شيء عن أن يشكل قناعة، أو حتى فرضية في طور الاختبار، فلا يمكن التغاضي

دمشق، أبريل 2007م، ص220 (باختصار) .

(1) انظر : الجاحظ (أبو عثمان عمرو بن بحر) : الحيوان، تحقيق : عبد السلام هارون، الهيئة المصرية العامة للكتاب (مكتبة الأسرة)، القاهرة، 2004م، 1/ 85، 86 .

(2) انظر : الجاحظ : الحيوان، 1/ 84 .

المنارة للاستشارات

عن مدلول حديثه عن النص المكتوب المنسرب، بخلاف النص المنطوق، في الزمان والمكان، وكيف انحرف هذا المدلول البسيط ليغدو متصلا بفكرة النص الشمولي، أو المنفتح، الذي بوسع المتلقي أن يقرأه بعيدا عن نية صاحبه، إذ إن حديث الجاحظ نفسه، لا أقول يخلو من هذه الفكرة تماما، بل يعمل كذلك على نقضها من أساسها، ويبزغ هذا، على نحو من الأنحاء، في قوله : =ويظهر ما فيه على كل لسان+، الذي يحيل على نمط من القراءة الاعتيادية، المعنية بالتنقيب عن مقصود المؤلف، لا برصد المعاني المتوالدة في ذهن المتلقي، وبهذا تستقيم المقايسة، إذ تتكافأ ساعتها الأطراف، فما يقوله الكاتب هو ما يقوله كتابه، وهو نفسه ما سيردده المتلقي بعد قليل، لترجح من ثم كفة الكتاب من جهة مقاومته عوامل تمدد الزمان واتساع المكان، ويبزغ هذا أيضا بكثافة في النصف الأخير من نص الجاحظ الفائت، حيث الإشارة إلى المعرفة المشتركة، بين المدونين الذين عاينوا الأحداث والمشاهد واستخلصوا الحكمة من جهة، والمستقبلين الذين مارسوا فحسب فعل القراءة من الجهة الأخرى، وهو ما يعني أننا حين كنا نقرأ النص الذي اجتزأناه من دراسة الباحثة لم نكن للحق نقرأ سوى حاشية على نص الجاحظ، تستهدف لا شرحه أو الكشف عن مخبوئه، أو حتى قراءته في ضوء المعارف الحديثة، وإنما استنطاقه ليفضي بما ليس فيه، ولذا كانت إحالة سؤال هذه الدراسة القائل : =ألا يمكن أن نعد آراء الجاحظ هذه إرهاصا أو سبقا لما قاله رواد نظرية التلقي؟+، إحالة على معدوم، لأن ما قرأناه من آراء لم يكن سوى ما قاله هؤلاء الرواد أنفسهم، لا الجاحظ .

7 /1/ يشرح ذلك أن هذه الآراء المذكورة تكاد تبعث أمامنا آراء الناقد الألماني هانس روبرت ياوس وفرضيات نظريته المعنية بجمالية الاستيعاب (Rezeptionästhetik) . لقد انطلقت هذه النظرية نفسها من فرضية مؤداها أن تأثير العمل الفني يتوقف على المقدرة النشطة لمستوعبه، وأن الفهم لم يعد يعني انخراطا في حدث التقليد، وإنما استحواذا نشطا لعمل ما بوساطة استحواذات متقدمة : تاريخ استيعابه، وبهذا تتمايز الأدوار التي تؤديها عن البلاغة التقليدية، يقول فولفجانج كامب (Wolfgang Kemp) :

=جمالية التلقي لديها على الأقل ثلاث مهمات :

المنارة للاستشارات

يجب عليها التعرف على العلامات والأدوات التي يدلف بها العمل الفني إلينا في عملية الاتصال .

يجب عليها أن تقرأ هذه العلامات والأدوات بالنظر إلى :

تاريخها الاجتماعي

تأثيرها الجمالي الحقيقي+ (1).

يشير ياوس، في معرض الإبانة عن مبادئ نظريته وسياقات تشكلها، إلى اشتراكها مع نظريات ما بعد البنيوية، في عدد من القضايا، منها مفهوم =العمل المفتوح+، بتعبير الناقد الإيطالي أمبرتو إكو (Umberto Eco) (2)، كما يكشف عن استلهامها الفلسفة التأويلية، لدى أستاذه في هايدلبيرج : الفيلسوف الألماني هانس جورج جادامير (Hans Georg Gadamer)، في الاعتقاد بأن الوعي الإنساني محكوم بمحددات تاريخية، وأن اكتمال تخلق المعنى الذي يتضمنه العمل الأدبي يرتهن بوجود الذات الممارسة للتأويل، وأن البحث عن اليقين المطلق ليس إلا عبثا، وأن التفسير (Auslegen) لا ينفك عن الفهم (Verstehen)، وأن كليهما لا ينفكان عن الممارسة (Anwendung) . هذا هو السياق الحاضن لمصطلح ياوس الأثير : =أفق التوقعات+ (3) (Erwartungshorizont)، الذي

---

(1) انظر :

Kemp (Wolfgang) : Kunstwerk und Betrachter : Der Rezeptionsästhetische
S . ‹Berlin 1988 ‹Kunstgeschichte eine Einführung ‹in : Hans Belting ‹Ansatz
. 242

(2) يحاول أمبرتو إكو في مشروعه السيميائي أن يسلك طريقا بين البنيويين القائلين بانغلاق النص على ذاته، والتأويليين المتحمسين لدعاوى التأويل المضاعف أو المفرط، وهنا نشأ مصطلح =العمل المفتوح= (Opera Aperta)، الذي يعكس فهمه عن العملية التأويلية، إذ يرى أن النص قابل لعدد لا نهائي من القراءات، وأنه ليس ثَمّ أكثر انفتاحا من نص يبدو مغلقا، لكنه مع ذلك يسعى لوضع حدود ومعايير للتأويل، إن لم يكن لاصطفاء أفضل تأويل، بوصف ذلك متعذرا، فلنفي التأويلات المغلوطة، مشيرا بذلك إلى ممارسات بعض البراجماتيين والتفكيكيين، الذين يمنحون للقارئ سلطة مطلقة في الولوج إلى النص من الزاوية التي تخدم مقاصدهم . انظر : عبد الغني بارة : استعمال النصوص وحدود التأويل؛ في نقد الممارسة التأويلية عند أمبرتو إيكو، مجلة مخبر، العدد الأول، 2009م، ص167 - 176 .

(3) غني عن الذكر أن المصطلح ترجم في العربية بادئ الأمر إلى : =أفق الانتظار =، وهي ترجمة غير دقيقة، ليس لأن الفعل الألماني ((erwarten يختلف في الدلالة عن الفعل (warten)، بما أنهما يتبادلان أحيانا، وإنما لأن التأمل في مدونة ياوس ونظريته ينفي تماما مدلول الانتظار الذي يحيل على التلبث والتمهل، فنفقدما تتصف به أنساق التوقعات من تنام وتوثب .

المنارة للاستشارات
ww

من الممكن مقاربته بتوجهنا إلى حديثه، في فرضيته الثانية لدراسة =التاريخ الأدبي بوصفه تحديا لنظرية الأدب+، عن النظام المرجعي للتوقعات، يقول :

=إن تحليل التجربة الأدبية للقارئ يفلت من تهديد النزعة النفسية حين يوصف استقبال العمل وأثره في النظام المرجعي للتوقعات، القابل للموضعة، الذي ينتج لأي عمل في اللحظة التاريخية لظهوره عن :

الدراية القبلية بالجنس الأدبي،

شكل الأعمال المعروفة سلفا وموضوعاتها،

التباين بين اللغة الشعرية واللغة العملية+ (1)+ .

إن هذا المفهوم يؤكد عقيدة ياوس في أن مستوعب الأعمال الأدبية ليس صفحة بيضاء منعزلة، يصب فيها النص خبرته، بما أن النص نفسه ليس سوى حصيلة تلاقيه وتلقيه، وسوى بنية دينامية لا يمكن إدراكها إلا ضمن تفعيلاتها التاريخية المتعاقبة . إن المتلقي بالأحرى يتمثل قوة مدركة، تمتلك نسقا من التجارب والنشاطات القرائية السالفة، وتتسلح بالوعي التاريخي الضروري لإتمام العملية التأويلية، وتتجاوب مع مجموعة الافتراضات السابقة إزاء النص، ويعمق ياوس هذا النظام الذهني المقترح لتفسير كيف تنجر عن طريقه عملية الفهم، بحديثه عن =تعديل+ هذا الأفق أو =امتداده+ أو =توقفه+، بحسب تنامي استجابة الذات للعمل الفني، وبحديثه عن =المسافة الجمالية+ (ästhetische Distanz) المقيسة بردود فعل الجمهور والنقاد أول مرة، للإشارة إلى المسافة بين أفق التوقع الموجود قبلا والعمل الجديد، وبحديثه عن =انصهار الآفاق+ (horizontverschmelzung) ؛ الأفق الذي يتضمنه النص والأفق الذي يحمله القارئ في قراءته (2)، وهي فرضيات من الضروري التبصر بجذورها المعرفية، لنستوعب مضامينها ونضمن عدم اختزالها، تجاوبا مع حرص ياوس نفسه على تحقيق ذلك أثناء تدشين نظريته .

(1) انظر :

Jauss (Hans Robert) : Literaturgeschichte als Provokation der Literaturwissenschaft، in : Konstanzer Universitätsreden، B . 3، Konstanz، Universitätsverlag، 1969، S . 30 .

(2) انظر :

Jauss : Literaturgeschichte als Provokation der Literaturwissenschaft، S . 32 .

المنارة للاستشارات
ww

من الممكن أن ندعم ذلك بسعينا للكشف عن أن مصطلح =انصهار الآفاق+ الذي استعمله ياوس لم يكن سوى مصطلح جاداميري بالأصالة (1) . يذهب جادامير إلى أن الموقف التأويلي يتحدد بالأحكام السابقة الممثلة لأفق الحاضر، وأن هذا الأفق يظل في حالة تشكل مستمر تفرضه مواجهتنا لأفق الماضي، ومن هنا ينشأ الفهم بما هو انصهار لتلك الآفاق التي نتوهم وجودها مستقلة بذاتها، ويضيف أنه إذا كانت الظاهرة التأويلية تتكامل مع أصالة الحوار وبنية السؤال والجواب، فإن هذا يعني أن السؤال (Frage) الذي يجيب عنه النص تندمج عملية إعادة بنائه، التي نلجأ إليها لنفهم معناه، في عملية استجواب (Fragend) النص ذاته (2) . وتأسيسا على ذلك يزعم ياوس أن عملية إعادة بناء أفق التوقعات، التي شهدت إنتاج العمل واستيعابه في الماضي، بمقدورها تزويدنا بالأسئلة التي يجيب عليها العمل، والتي بوساطتها نستنتج كيف تمكن قارئ هذه الحقبة من النظر إليه وفهمه، وبهذا الإجراء ننأى بأنفسنا عن الالتزام بالرجوع في هيئة دائرية إلى الروح العامة للعصر، ونتمكن من صياغة تاريخ استيعابه .

ولئن كان هذا التشبث بالأثير التاريخي سيبدو مقربا ياوس من جادامير، بقدر ما يبعده عن هوسيرل وفكرته عن الزمن، الذي يتداخل ماضيه ومستقبله في اللحظة الراهنة؛ فإن فحص المفاهيم التي بلورها هذا الأخير ستشي عن تقارب ما بينهما . الباعث لنا هنا ليس مجرد تسجيل ياوس، في فرضيته الثالثة، استعارته مصطلح تغير الأفق (Horizontwandel) من هوسيرل (3)، وإنما معرفتنا أن مصطلح الأفق

(1) يقول بول ريكور : =ونحن مدينون لـ غادامير بفكرته هذه عن الاتصال عن بعد بين وعيين متموقفين على نحو مختلف وذلك عن طريق انصهار آفاقهما . . . ويدل هذا المفهوم على أننا نعيش لا داخل آفاق مغلقة ولا داخل أفق واحد متفرد =. انظر : بول ريكور : مهمة الهرمنيوطيقا، ترجمة : خالدة حامد، نوافذ، النادي الأدبي الثقافي، العدد الثاني والعشرون، جدة، ديسمبر 2002م، ص83 .

(2) انظر :

Gadamer (Hans Georg) : Wahrheit und Methode; Grundzüge einer philosophischen Hermeneutik، 1 . B، Mohr Siebeck، Tübingen، 2010، 311 . S، 375، 379 .

(3) انظر :

Jauss : Literaturgeschichte als Provokation der Literaturwissenschaft، 36 . S .

المنارة للاستشارات
ww

نفسه يكاد يكون، من منظور فلسفي، مصطلحا هوسيرليا (1) . التجأ هوسيرل إلى مصطلح الأفق ليشرح فكرته عن عملية اتساع الوعي بصورة تدريجية، إذ لا يمكن في رأيه إدراك موضوع ما إلا عن طريق تجلياته أو ظهوراته (Erscheinungen) المتباينة، التي تقدم نفسها للوعي لا بصفتها موضوعات، ولا حتى متضمنة لها، وإنما بصفتها سيرورة يقتاتها المعنى ذو التشكل المستمر، وفي هذه الحالة يبرز الأفق القصدي المتغير، من حيث كونه تضايفا (Korrelation) بين الفعل المعرفي والموضوع، لا يلبث كلما افتض أن يكشف عن إمكانات جديدة غير التي سبق إدراكها . وتزداد درجة وضوح الصلة حين نتابع حديث هوسيرل عن الأفق الخارجي الذي ينبهنا إلى أن المدرَك ليس سوى شيء واحد في حقل من المدركات، عن الأفق الزمني للموضوع؛ مستعينا بثنائية (Retention und protention) : الاحتفاظ والاستشراف، لتفسير انسراب اللحظة الراهنة وتمددها في الماضي والمستقبل، وهي اللحظة التي تنجم بوساطة فعلي الأنا الواعي : التذكر (Wiedererinnerung) المسئول عن استدعاء الاحتفاظات السالفة، والتوقع (Erwartung) الذي يصفه هوسيرل بأنه تذكر بالمقلوب لمسئوليته عن استحضار الاستشرافات القابلة، وأيضا حديثه عن العالم بوصفه أفقا كليا مشتركا بين الذوات المدركة المتصلة (2) ؛ وهي أفكار تمهد، بصورة ما، لآراء ياوس عن أفق التوقعات وعلاقته بتشكل المعنى .

8 /1 /ما سبق يجلي أن مصطلح =أفق التوقعات+ لا ينفصم عن العقيدة التأويلية التي تمتهنها النظرية، بحسب تعبير ياوس، ويكشف أيضا أن صنيع الدراسة في قولها : =.. . فكل قارئ يتناول النص من خلال ثقافته وتجربته الخاصة، ومن خلال هموم مجتمعه وقيم

(1) يشير هِلميت كون إلى أن مصطلح الأفق قد اكتسب مضمونه الفلسفي لأول مرة عن طريق أطروحات كل من نيتشه وهوسيرل، انظر :

Kuhn (Helmet) : The Phenomenological concept of Horizon (in : Philosophical Essays in Memory of Edmund Husserl، ed . Marvin Farber)، Cambridge، Harvard University، 1940، p . 114 .

(2) انظر :

Husserl : Die Krisis der europäischen Wissenschaften und die transzendentalePhänomenologie، Husserliana (aus Gesamelte Werke، B . VI، hrsg)، Meiner، Hamburg، 2012، S . 160 - 166، 183 .

المنارة للاستشارات
ww

عصره (أفق توقعاته) ..+، لم يكن سوى إقحام للمصطلح في غير بيئته، ففضلا عن التحدث على لسان الجاحظ بما لم يصرح به، يصاب المفهوم باختزال مفرداته وتغييب مرجعياته . سنصطدم بهذا المزلق في موضع آخر من الدراسة أثناء قراءتها بعض نصوص الجاحظ، التي يقرر فيها أن المعنى الكلي لا يمكن تولده عن قراءة جزئية(1)، إذ تقيم الصلة بينه وبين فكرة =وجهة النظر المتجولة+ (Wandering Viewpoint) التي اقترحها القطب الثاني في مدرسة كونستانس فولفجانج إيزر، وهي صلة نراها واهية إلى حد بعيد، والحق أنه لا يسعنا المقام لبيان كافة وجوه رؤيتنا تلك، لكن ربما يكفي في هذا السبيل الإشارة العجلى إلى بعضها، ونبتدئ بالإبانة عن المناخ الذي صيغ فيه المصطلح؛ فقد بدا إيزر لاجئا إليه قصد معالجة العقبات التي تقف أمام عملية التلقي، إذ يذكر أن النص الأدبي يختلف عن الموضوعات التي يمكن إدراكها في وقت واحد، وأنه لا يقوم بالدلالة على أشياء موجودة تجريبيا، إلا بعد أن يعمل على تقليص نفعيتها أو تداوليتها، ليهتك إطارها الدلالي الأصلي، وهنا ينشأ السؤال حول كيفية تفهمه من قبل القارئ، وتأتي الإجابة من قبل إيزر الذي يرى أن القارئ بتموضعه داخل النص، وعدم منحه فرصة للانفصال عنه، يتمكن من تكوين الفهم بصورة تراتبية أثناء المسار الزمني للقراءة، فمع المضي قدما في فعل القراءة ينخرط الماضي والمستقبل بصورة مستمرة في اللحظة الحاضرة، ليبرز الدور التركيبي لوجهة النظر المتجولة، الذي يشبه دور شبكة اتصالات دائمة الاتساع والتمدد، وهو ما يسهم في توليد الانطباع بأننا ماثلون فعلا في العالم الواقعي للعمل الأدبي (2) .

في أثناء ذلك يلجأ إيزر إلى كل من هوسرل وتلميذه الفيلسوف البولندي الظاهراتي رومان إنجاردن (Roman Ingarden)، وتقابلنا مناقشات واسعة لرؤاهم وتعقيبات شتى عليها، ومن المهم هنا معرفة أن الأول منهما قد رأى أن كل عملية ذهنية أصيلة يتم استيحاؤها بوساطة =التوقعات+ التي تبني وتجمع بذور ما سوف يأتي كما أنها تقوم بإنباته،

(1) انظر : الجاحظ : الحيوان، 1/ 37، 38 .
(2) للمزيد حول مفهوم وجهة النظر المتجولة؛ ينظر :
john ،Iser (wolfgang) : The Act of Reading; A Theory of Aesthetic Response ،Hopkins university Press ،Baltimore ،1978 ،p109 - 119 .

المنارة للاستشارات

وأن الآخر قد اعتقد في أن العمل الأدبي تكوين متعدد الطبقات يجمع بينها وحدة =هارمونية+، وأن طبقاته تلك تضم أماكن من =اللاتحديد+ (Unbestimmtheitsstellen) يقع على عاتق القارئ ملؤها، وأن فعل الإدراك هو الذي يحول النص من مجرد جمل متسلسلة إلى عمل أدبي مكتمل (1)، وفي إطار الإفادة من ذلك يذهب إيزر إلى أنه أثناء عملية القراءة تحدث عملية تداخل بين التوقعات المعدلة (Modified Expectation) والذكريات المحولة (Transformed Memories)، وإذ إن النص نفسه لا يسهم في إحداث التوقعات أو تعديلها، ولا يحدد كيفية تطبيق عملية الربط بين الذكريات، فإنها تبقى مهمة للنشاط الإبداعي للقارئ وحده، كما يشير إيزر أيضا أن كل لحظة قراءة ما هي إلا تفاعل ديالكتيكي بين التوقع والتذكر، تفصح عن أفق مستقبلي لم يشغل بعد مع أفق ماض مشغول بالفعل، ووجهة القارئ المتجولة تشق طريقها عبر الاثنين، كما يرى أنها تقسم النص إلى بنيات أو علامات، لتقوم في مرحلة ما بنشاطها التجميعي الذي به سيكتسب معنى .

8 /2/ هذا الشرح المستخلص، وإن يكن موجزا، يكفي لإظهار الشقة بين مصطلح =وجهة النظر المتجولة+ ونص الجاحظ، من حيث إن المصطلح يتساوق وظاهراتية صاحبه، ويكشف عن اهتماماته بفعل القراءة، وانشغاله بإدراك القارئ الجمالي، ويجذر مفهومه عن العمل الأدبي بما هو أثر يعاش وليس موضوعا يستوجب تعريفه (2)، ويمكننا إمعانا في إظهار هذه الشقة الإلماح أخيرا إلى تعقيب إيزر على مفهوم إنجاردن عن الفجوات أو أماكن اللاتحديد، إذ بالرغم من استلهامه أصل هذه الفكرة، وتشييده نظريته على قراءة قارئ يشتغل بملء فراغات النص (Leerstelle)، فإنه قد جابه بعض مفردات تصوره عنها، فرفض توصيفه لها بأنها عقبة أو صدع، ورأى في هذا الوصف تصورا مواليا للفكرة الكلاسيكية، التي ترقب العمل الفني من حيث كونه تناغم أصوات، في حين ينبغي الانتباه إلى أن التسلسل في العمل الأدبي يجيء

---

(1) للمزيد حول أطروحة طبقات النص الأدبي ومواطن اللاتحديد؛ ينظر :
Ingarden (Roman) : Erlebnis، Kunstwerk und Wert; Vorträge zur Ästhetik، Max Niemeyer، Tübengen، 1969، 154 . S .157، 215-216 .

(2) انظر : إيزر (فولفجانج) : وضعية التأويل؛ الفن الجزئي والتأويل الكلي، ترجمة : حفو نزهة وبو حسن أحمد، مجلة دراسات سال، فاس، العدد : 6، 1992م، ص76 .

المنارة للاستشارات
ww

مليئا بالالتواءات، التي قد ينتظرها القارئ، ليمضي سائلا عن العلة الخفية وراءها، ما يعني الإفساح أمام قراءات فاعلة تظهرنا على تحققات متنوعة للنص الواحد؛ يقول إيزر :

=متى ما أعيق المجرى وتم اقتيادنا باتجاهات غير متوقعة، فإن الفرصة تكون سانحة لنا في أن نطلق العنان لملكاتنا بإقامة ترابطات، وبملء الفجوات التي تركها النص نفسه. . .للنص الواحد قابلية كامنة لبضعة تحققات مختلفة، وليس ثمة قراءة يمكن أن تستنفد أبدا كل الإمكان الكامن فيه، لأن كل قارئ فرد سوف يملأ الفجوات بطريقته الخاصة، ليقصي بذلك الإمكانيات المتنوعة الأخرى. . .إن عملية القراءة عملية انتخابية، وإن النص المكتنز بإمكانيات أغنى بصورة لا متناهية من أي من تحققاته الفردية+ (1) .

9ما كنا نرمي إليه، في هذه الصفحات الفائتة، ليس يتلخص في الاحتجاب دون الإفادة من المستجدات المعرفية، ولا أيضا منع عمليات التنقيب الجاد في تراثنا عما يمكن أن يجلي أصالته وبهاءه، ويؤكد قابليته لمواجهة إشكالات العصر التي نحياها، وإنما يتوجه إلى تعميق قيمة الاتزان أثناء الانفتاح على الرؤى الوافدة أو الحداثية، واليقين في أن الحقيقة التي يستشرفها الباحثون ينبغي ألا تنزوي أثناء الاعتصام بالتراث . حينئذ سيمكن الحديث عن ملامح لنظرية، أو نظريات، بلاغية قديمة نشأت حول المتلقي، ليست تتشاكل والنظريات الحديثة بالضرورة، كما أن ذلك في الوقت نفسه لم يكن ليضيرها .

المصادروالمراجع

أولا : العربية؛ المؤلفة والمترجمة :

إيش (إلرود) : التلقي الأدبي، ترجمة : محمد برادة، مجلة دراسات سال، فاس، العدد 6، 1992م .

إيزر (فولفجانج) : وضعية التأويل؛ الفن الجزئي والتأويل الكلي، ترجمة : حفو نزهة وبو حسن أحمد، مجلة دراسات سال، فاس، العدد : 6، 1992م .

ـــــــــــ : عملية القراءة؛ مقترب ظاهراتي (ضمن كتاب : نقد استجابة القارئ، من الشكلانية إلى ما بعد البنيوية، تحرير : جين تومبكنز)، ترجمة : حسن ناظم وعلي حاكم، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، 1999م .

تومبكنز (جين) : القارئ في التاريخ؛ تغير شكل الاستجابة الأدبية (ضمن كتاب : نقد استجابة القارئ، من الشكلانية إلى ما بعد البنيوية، تحرير : جين تومبكنز)، ترجمة : حسن ناظم

(1) انظر : إيزر (فولفجانج) : عملية القراءة؛ مقترب ظاهراتي (ضمن كتاب : نقد استجابة القارئ، من الشكلانية إلى ما بعد البنيوية، تحرير : جين تومبكنز)، ترجمة : حسن ناظم وعلي حاكم، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، 1999م، ص 120، 121 (باختصار) .

المنارة للاستشارات

وعلي حاكم، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، 1999م .
الجاحظ (أبو عثمان عمرو بن بحر) : البيان و[التبين]، تحقيق : عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط7، 1998م .
ـــــــــــ : الحيوان، تحقيق : عبد السلام هارون، الهيئة المصرية العامة للكتاب (مكتبة الأسرة)، القاهرة، 2004م .
الجرجاني (عبد القاهر بن عبد الرحمن) : أسرار البلاغة، تحقيق : محمود محمد شاكر، دار المدني، القاهرة، 1991م .
ـــــــــــ : دلائل الإعجاز، تحقيق : محمود محمد شاكر، مكتبة الخانجي، القاهرة، 2000م .
ابن رشيق القيرواني (أبو علي الحسن) : العمدة في صناعة الشعر ونقده، تحقيق : النبوي شعلان، مكتبة الخانجي، القاهرة، 2000م .
السجلماسي (أبو محمد القاسم الأنصاري) : المنزع البديع في تجنيس أساليب البديع، تحقيق : علال الغازي، مكتبة المعارف، الرباط، 1980م .
سميرة سلامي : إرهاصات نظرية التلقي في أدب الجاحظ، مجلة التراث العربي، دمشق، أبريل 2007م .
عبد السلام هارون : قطوف أدبية دراسات نقدية في التراث العربي حول تحقيق التراث، مكتبة السنة، 1988م
ـــــــــــ : مقدمة التحقيق [منشور بين يدي كتاب : البيان والتبيين للجاحظ]، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط7، 1998م .
عبد الغني بارة : استعمال النصوص وحدود التأويل؛ في نقد الممارسة التأويلية عند أمبرتو إيكو، مجلة مخبر، العدد الأول، 2009م .
العسكري (أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل) : [كتاب] الصناعتين، تحقيق : محمد البجاوي، المكتبة العصرية، بيروت، 1986م .
مصطفى ناصف : نظرية التأويل، النادي الأدبي الثقافي، جدة، 2000م .
هولب (روبرت) : نظرية التلقي، ترجمة : عز الدين إسماعيل، النادي الأدبي الثقافي، جدة، 1994م .

ثانيا : الأجنبية :

Gadamer (Hans Georg) : Wahrheit und Methode; Grundzüge einer philosophischen Hermeneutik, 2010, Mohr Siebeck, Tübingen, S296 . 307 -
Husserl (Edmund) : Die Krisis der europäischen Wissenschaften und die transzendentale Phänomenologie, Meiner (aus Husserliana, Gesamelte Werke, B . VI, hrsg(, Hamburg, . 2012
Texte zur Phänomenologie des inneren Zeitbewußtseins (1893(1917 - , Von : Rudolf Bernet, Felix Meiner, Hamburg, 1985, S73 . 78 -
Iser (wolfgang) : The Act of Reading; A Theory of Aesthetic Response, john Hopkins university Press, Baltimore, . 1978
Ingarden (Roman) : Erlebnis, Kunstwerk und Wert; Vorträge zur Ästhetik, Max Niemeyer, Tübengen, . 1969
Jauss (Hans Robert) : Literaturgeschichte als Provokation der Literaturwissenschaft, in : Konstanzer Universitätsreden, B . 3, Konstanz Universitätsverlag, Konstanz, 1969
Kemp (Wolfgang) : Kunstwerk und Betrachter : Der Rezeptionsästhetische Ansatz, in : Hans Belting, Kunstgeschichte eine Einführung, Berlin 1988 .
Kuhn (Helmet) : The Phenomenological concept of Horizon (in : Philosophical Essays in Memory of Edmund Husserl, ed . Marvin Farber(, Cambridge, Harvard University, . 1940
Link (Hannelore) : Rezeptionsforschung Ein Einfuehrunbg in Methoden und Probleme, Stuttgart, W . Kohlhammer Verlag, . 1976
Warneken (Bernd Jürgen) : Zu Hans Robert Jauß' Programm einer Rezeptionsästhetik .

المنارة للاستشارات
ww

In : Peter Uwe Hohendahl (Hg .) : Sozialgeschichte und Wirkungsästhetik . Frankfurt/M, . 1974

المنارة للاستشارات
www